صور من الحياة

للدكتور عبد العزيز برهام

(إن قول الحق لم يدع لي صديقاً)
(أكثم بن صيفي)

لا يجرح غير الحقيقة (مثل فرنسي)

جمعتني الصدفة بصديق قديم كنت آخذ عليه دائماً إخلاف المواعيد . زرته في مقر عمله فوجدت عنده عدداً عديداً من الزوار كلهم يرجوه في أن يشفع له عند فلان أو فلان في أمر كذا أو كيت ، ورأيته يمنيهم جميعاً بقضاء حاجاتهم ، فيخرجون من لدنه ، وقد امتلأت نفوسهم بالآمال ، وظنوا أنفسهم قاب قوسين أو أدنى من بلوغ المرام . ولكنهم ما كادوا يبرحون مكتبه حتى تنفس الصعداء ، والتفت إليَّ وعلى شفتيه ابتسامة ثم قال : أف لهؤلاء الناس ! أيظنونني عبداً مسخراً لهم ؟ ما أكثر ما هم عليه من بله ! قلت : وماذا يحملك على أن تمنيهم كل هذه الأماني ؟ قال : وماذا يضيرني ، وقد بلغ الحمق بالناس أن يصدقوا كل ما يقال لهم ؟ أولا يسرك أن تراهم وقد خشعت أبصارهم أمامك ، وانخفضت أصواتهم ، وبدت عليهم الذلة والمسكنة ، وهم يضرعون إليك بالرجاء ؟ قلت : وأي لذة في هذا ؟ قال : إن فيها لذة لا يشعر بها إلا من مر بمثل ما أمر به . قلت : أما آن لك أن ترعوي يا (نيرون) زمانه ؟ قال : وأنت ! أما آن لك أن تقصد في نصحك ؟ قلت : بلى . ثم افترقنا .

انقضت ثلاثة أشهر لم أر فيها صديقي ، ثم عدت إليه أزوره ، ولشد ما كانت دهشتي عند ما رأيت بين زواره فريقاً ممن رأيتهم عنده من قبل يطلبون شفاعته ، وإذا به يعود فيمدهم ويمنيهم . لم أطق صبراً على رؤية هذه المسرحية الموجعة ، قلت عليه بعد أن صرف واحداً منهم بالحسنى ، وكنت أرى في مظهره ما يستهل المساعدة : أتنوي حقاً قضاء حاجة هذا الرجل ؟ فقال ، وهو يهمس في أذني : وكيف لي بقضاء ما يطلب ؟ إنه يطلب أن أعينه في وظيفة ممرض ، وأنا لا أعرف من أطباء الصحة أحداً . قلت : فلم إذن كل هذه الأماني المسولة ؟ قال : دعه ، فسنتجلى له الحقيقة يوماً ما ، وسيريحني من تردده الملل عليَّ . قلت : ولماذا لا تصارحه بها ؟ قال : يالك من غر ! أتريد أن أقول له إنني لا أعرف من أطباء الصحة أحداً ؟ قلت : ولم لا ؟ قال : هذه حماقة لا أرضاها لنفسي .

لم أكد أسمع منه هذا الحديث حتى بعثت فاستدعيت الزائر الذي انصرف ، وكان لا يزال على مرأى منا ، وقلت له على مسمع من الجالسين : أيها الأخ ! إن فلاناً هذا يأسف لأنه لن يستطيع قضاء أمرك ، فهو لا يعرف أحداً من أطباء الصحة .

فوقف الرجل مشدوهاً من سماع هذه الكلمات ، وهو لا يكاد يصدق ما يسمع ، وكأن لسان حاله يقول : ففيم إذن كانت كل هذه المقابلات ؟ وانتفض صديقي انتفاضة تدل على الغضب البالغ فلقد فوجئ بما قلت . ثم التفت إليَّ يقول : هذا لا يليق بي أن تقوله . هذه إهانة لا أقبلها منك . قلت : أو ليس ما قلت حقاً ؟ قال : وما كل حق يقال . قلت : ولكن هذا الرجل يجب أن يعرف إلى أين يسير ؟ قال : لا شأن لك بي وبأموري . ثم مد إليَّ يده وهو يقول : وداعاً ، يا صديق . فوقفت وانصرفت وأنا أقول : وداعاً لا لقاء بعده .

* * *

وأردت أن أتزوج ، فأوصيت كل من تعنيني بهم صلة أن يعينوني في البحث عن « نصفي الثاني » . ثم طرقت بابي ذات مساء سيدة هي مني بمنزلة الوالدة ، ووجهها يطفح بشراً . وما كادت عيناها تقعان عليَّ حتى صاحت : أبشر يا صاح ! فقد وجدت ضالتك المنشودة . إنها فتاة في ريعان الشباب ومقتبل العمر ، من أسرة كريمة ، وإن لم تكن غنية . قلت : وهل نقلت إليهم ما تعرفين عني ؟ قالت : لقد قلت عنك كيت وكيت ، وقلت إنك تملك خمسين فداناً . قلت : في أي بلد ؟ قالت : لا أدري . قلت : فكيف إذن قلت ذلك وأنت تعلمين أنني لا أملك قيراطاً واحداً ؟ قالت : أو لست جديراً بأن تملك هذا المقدار وأكثر منه ؟ قلت : الجدارة شيء والواقع شيء آخر . وما كان لك أن تقولي غير الحقيقة .

التقيت بأصهاري « الجدد » وكان استقبال بالغ الحفاوة ، وترحيب لا نظير له ، ثم اتفقنا على كل شيء ، ولكن ... وما أقسى لكن هذه ! دار بخلدي أن هؤلاء الأصهار « الجدد »